تفسير الامام فضل الله بين النقل والعقل

الدكتور حسن عاصي

عندما سئل عبيدة بن قيس العوفي (ت٧٢هـ) عن معنى آية من آيات القرآن، اجاب سائله: عليك باتقاء الله والسداد فقد ذهب الذين كانوا يفهمون القرآن

نفهم من كلام عبيدة هذا ان فهم القرآن مقيد بشروط تجتمع للصحابة الذين سمعوا من النبي (ص) مباشرة، لا تجتمع لسواهم حتى من التابعين، خاصة ان عبيدة هذا من صحابة عبدالله بن مسعود، الصحابي الجليل الذي يعرف بتفسيره والذي روى عنه الكثير.

لكن الحاجة إلى القرآن كانت تزداد اذ كانت تقاس بمدى بعدالمجتمع الإسلامي عن زمن النبي (ص)، وبمدى انحراف ذلك المجتمع عما كان عليه ايام النبي من عدالة وعما كان عليه كذلك ايام الراشدين، حين كان القرآن دستور الامة وسبيل الجماعة:يهتدي به الخليفة ويستنير به الحاكم وينتهجه الوالي، فكانت العدالة بما تختزنه من مبادئ الخير والفضيلة، وما تتضمنه من الحرية والمساواة.

ولكن دائرة العدالة باتت تضيق بعد النبي (ص) وبعد خلفائه من بعده، وبدأ الوهن يعتري جسم المجتمع الإسلامي، اذ صارت قيم الإسلام تذوي وفضائله تخبو لتزداد الحاجة إلى القرآن كلما انزلقت الامة في مهاوي الزيغ ونأت في متاهات الانحراف.

امام تردي ذلك الواقع، كان الحنين إلى زهو الامس وراحت الجماعة ترنو إلى سالف عهدها من عز وفخار واذ كان القرآن مصدر المبادئ والمفاهيم والقوانين التي ارسيت عليها دعائم المجتمع انذاك فان ذلك القرآن مازال يختزن تلك المفاهيم والقوانين ويكفي استنباطها والتآلف معها للعودة إلى بركة الإسلام ونعيم عدالته فكيف نفهم القرآن وكيف نتفاعل معه؟ لم يكن هذا السؤال مطروحا من قبل اذ انه كما يرى ابن خلدون ، نزل بلغة العرب وعلى اساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه... وكان النبي ص يبين المجمل ويميز الناسخ من المنسوخ ويعرفه اصحابه فعرفوه وعرفوا اسباب نزول الايات ومقتضى الحال منها .لكن ابن قتيبة المتقدم على ابن خلدون رأى ان العرب لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه بل ان بعضها يفضل في ذلك على بعض.

واذا كان من تباين بين رأي كل من ابن خلدون في تساوي العرب بفهم القرآن وابن قتيبة في تفاوت درجات العرب في ذلك فانهما يلتقيان في اعتبار النبي (ص) مرجع الصحابة في كل ما يشكل عليهم فيبينه ويوضحه على قاعدة قوله تعالى: ﴿وانزلنا اليك الذكر﴾. [النحل ٤٤]

لكن ما بينه النبي لاصحابه تباينت وجهات النظـر في مقـداره ففـي حـين رأي ابن تيمية انه ﷺ بين لاصحابه كل معاني القرآن والفاظـه رأى اخـرون ان النبي ﷺبين لاصحابه القليل فقط من معاني القرآن وراح كـل منهـم يدعـم مـا ذهب اليه بالحجة والدليل. وبين هذا وذاك تبرز قيمة رأي ابـن عباس: التفسـير على اربعة أوجه وجه تعرفه العـرب من كلامـه وتفسـير لا يعـذر احـد بجهالتـه وتفسير تعرفه العلماء وتفسير لا يعلمه الا الله.

هذا الجدل كان أول دواعي التفسير لكن لم يكن كلها، وانما اجتمعت دواع متعدده برزت معها الحاجة إلى التفسير وساهمت في نشأته اهمها

ا – ما يراه جولد تسيهر من خصوصية الخط العربي الـذي يقـدم هيكلـه الموسـوم مقـادير صوتيـة مختلفـة ففـي الايـة: ﴿ هوالـذي يرسـل الريـاح بُشـراً﴾ [الأعراف ٥٦] قد نقرأ نشرا بدل بشرا وفي الاية: ﴿ وما كان استغفار ابراهيـم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه﴾ فقد نقرا اباه بدلا من اياه على ان هناك بعض الايات التي تؤدي فيها هذه الاختلافات البسـيطة إلى دلالات متناقضـة كمـا في الاية: ﴿ ياقوم انكم ظلمتم انفسكم باتخاذكم العجل فتوبـوا إلى بـارئكم فـاقتلوا انفسكم ذلكم خير لكم ﴾في هذه الايةقد تقرأ ﴿ اقيلوا انفسكم ﴾بدلا اقتلوا.

فتبعا لاختلاف النقط الموضوعة فـوق الهيكـل أو تحتـه كمـا يـرى جولـد تسيهر يختلف موقع اعراب الكلمة ويختلف معه المعنى.

ب– دعـا القـرآن في كثـير مـن آياتـه إلى الاجتهـاد في اسـتنباط المعـاني المحتجبة وراء ظاهر الايات: ﴿ فاعتبروا ياأولي الابصار﴾: ﴿ وما يعلم تأويلـه الا

الله والراسخون في العلم ﴾: ﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾: ﴿ليدبروا اياته وليتذكر أولوا الالباب ﴾.

هذه الايات وكثير منها تدعو للتأمل للكشف والتفكير فيما يكمن وراء ظاهر الايات

ج- كما الايات، دعت الاحاديث إلى معرفة ما وراء الايات: ﴿ما نزل من القرآن اية الا ولها ظهر وبطن، لكل حرف حد ومطلع ﴾.

د- اختلاف العلماء في المقدار الذي بينه النبي لاصحابه كما ورد اعلاه بين قائل ان النبي (ص) بين لاصحابه كل معني القرآن كابن تيمية، وبين قائل انه (ص) لم يبين لاصحابه الا القليل فمن اقتصر على المنقول اليه فقد ترك كثيرا مما يحتاج اليه ومن اجاز لكل احد الخوض فيه فقد عرضه للتخليط.

هـ- على ان هناك عاملا في غاية الاهمية، هو انضواء شعوب غير عربية تحت لواء الإسلام تجهل لغة القرآن، هذه الشعوب بحاجة لمعرفة دينها ومبادئه.

و- يضاف إلى كل ذلك ان صلة الإسلام بالحياة ومنزلة القرآن من حيث هو مرجع المسلمين في كافة شؤونهم جعلت تدرج الحياة ينعكس جليا على القرآن ويوجه التفسير وجهات متعددة استلزمتها متطلبات الحياة وضرورات التجديد. على ان التفسير رغم تعدد العوامل التي اوجبته ودعت اليه تدرج وتمر بمراحل متعددة ففي حين كان ينظر اليه بعين الارتياب كما مع عبيده بن قيس العوفي وحتى عهد متقدم من القرن الثاني للهجرة بلغ الامر إلى تفسير اشاري مجرد عن أي اثر أو رواية أو قصة.

فقد بدأ التفسير بعد النبي (ص) مع الصحابة يفسرون بما اثر عنه واذا كان من ارتياب وحذر من التفسير فلان القرآن لا يجوز تفسيره بالرأي بالتفكير الذاتي ولا بالهوى أي الميل الاختياري يجب ان يكون التفسير بعلم لكن العلم كان انذاك معرفة التعاليم المسنده إلى مصادر العلم المعتد بها وحدها المسنده بالرواية إلى الرسول نفسه أو إلى صحابته فمن يستطيع ان يسند قوله إلى هذه المصادر فهو وحده الذي عنده العلم وما عدا ذلك فهو رأي وهوى حدس وتخمين.

وفي الحديث عن مراحل التفسير القرآني يمكن ان نقف على العناوين التالية:

ا – في عهد النبي(ص): حيث كان النبي يبين لاصحابه ما اشكل عليهم ويوضحه: ﴿ وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما انزل اليهم ولعلهم يتفكرون﴾ ولم تكن الحاجة إلى معاني القرآن هنا ملحة فالمسلمون عامة يتفيأون بركته ويتبارون في حفظ آياته خاصة الجديد منها اضافة إلى ان الرسول (ص) كان القدوة الحسنة في السلوك القرآني والتطبيق العملي لمبادئ القرآن.

ب– في عهد الصحابة: ظل القرآن مرجع المسلمين في كافة شؤونهم وكان الصحابة يرجعون اليه، واذا لم يتسن لهم تفسير القرآن بالقرآن ولم يتيسر لهم تفسير ما أثروه عن النبي (ص) اجتهدوا واعملوا رأيهم اذ انهم عايشوا نزول الوحي وعرفوا اسباب النزول، وما احاط بالقرآن من ظروف يوضح ذلك قول الواحدي: لايمكن معرفة تفسير الاية دون الوقوف على قصتها وبيان سبب النزول.

ولم يتساوى الصحابة في التفسير وانما اختلفوا تبعا لما سمعوه عن النبي ﷺ وما شاهدوه من اسباب النزول. وكان اشهر الصحابة بالتفسير حسب رأي السيوطي: الخلفاء الاربعة وعبد الله بن مسعود وابن عباس وزيد بن ثابت وابو موسى الاشعري وابي بن كعب.

ج- في عهد التابعين تميز هذا العهد بتدوين التفسير وأول تفسير دون كان تفسير سعيد بن جبير الكوفي (ت٩٥هـ) وظهر في هذا العصر ثلاث مدارس في التفسير:

١- مدرسة مكة: اشتهر فيها تلاميذ ابن عباس واشهرهم ابو الحجاج مجاهد بن جبير المكي (١٠١هـ) وعكرمة مولى ابن عباس(ت١٠٥هـ)وغيرهم.

٢- مدرسة العراق: اشتهر فيها تلاميذ ابن مسعود واشهرهم: مسروق بن الاجدع الكوفي (ت٦٣هـ) والاسود بن يزيد (ت٧٥هـ) وغيرهم.

٣- مدرسة المدينة: اشتهر فيها تلاميذ ابي بن كعب واشهرهم ابو العالية رفيع بن مهران الرياحي (ت٩٠هـ) ومحمد بن كعب القرظي(ت١١٨هـ) وغيرهم.

د- في عهد تابعي التابعين اتسم هذا العهد بجميع ما اثر عن الرسول وعن الصحابة والتابعين وتم تدوين كتب التفسير مثل مقاتل بن سليمان (ت١٥٠هـ) شعبة بن الحجاج (ت١٦٠هـ) ويزيد بن هارون (ت٢٠٦هـ) وغيرهم

تجدر الاشارة هنا إلى تفسير ابن جرير الطبري (ت٢١٠هـ) الذي جمع كل ما دون في تلك الفترة فكان كما وصفه السيوطي اجل التفاسير واعظمها

فانه يستعرض وجيه الاقوال وترجيح بعضها على بعض والاعـراب والاستنباط فهو يتفوق بذلك على تفاسير الاقدمين.

حتى هـذه المرحلـة يمكننـا ادراج كافـة التفاسـير تحـت عنـوان: التفسـير النقلي الذي يمكن ان نحدد اطاره في اتجاهين

– تفسير القرآن وذلك بمقارنة الايات بعضها ببعـض فيستخلص المجمـل من المبين والموجز من المسهب وهو ارقى مصادر التفسير

– تفسير القرآن بالروايةوالمأثور عـن النـبي(ص) أي بالاسـتناد إلى القصـة ومعرفة اسباب النزول.

وبعد هذه المرحلة تدرج التفسير حيث ان علوما عقليـة ونقليـة وجهـت التفسير وجهـات مختلفـة كمـا ان مقـاصد واغراضـا سياسية في الحياة العمليـة ساهمت في توجيه التفسير فتركت كتبا ومناهج عديـدة اثـرت في مجـرى الحياة والثقافة الإسلامية تأثيراً قوياً وفعالاً فوضعت تفاسير متعددة ومتنوعة تلتقي عند عنوان واحد هو التفسير العقلي أي بالاعتمـاد علـى الاجتهـاد والـرأي وتقديـم حكم العقل على حكم الشرع كما فعل المعتزلة مثلا.

وفي الحديث عن التفسير العقلي تنبغـي الاشـارة إلى التمييـز بـين التفسـير والتأويل ولن نسهب كثيرا في ذلك حيث ان الكلام يطول وانما باختصار نقـول ان التفسير هو ابانة حكم اللفظ ويستعمل في غريب الالفاظ وبيان وضع اللفظة حقيقة أو مجازا ويتعلق بالرواية في حين ان التأويل هو ما يحتمله اللفظ من المعنـى ويكون في الجمـل وحمـل اللفـظ علـى المعنـى المجـازي ويتوجـه إلى بـاطن اللفـظ واختصاصه الدراية

وبين النقل والعقل تعددت مناهج التفسير حيث تلون كل تفسير بثقافة المفسر وما يرمي اليه وما يقصده فكانت التفسيرات المتعددة والمناهج المتنوعة والمختلفة.

والان ونحن بين يدي تفسير سماحة آية الله السيد محمد حسين فضل الله هل نعتبر تفسيره تفسيراً عقلياً ام نقلياً لا سيما وان طبعته الجديدة المنقحة والمزيدة قد اضافت على ابوابه ما درج عليه بعض المفسرين الاقدمين من ربط الآية باسباب نزولها؟ للاجابة على هذا السؤال تجدر الاشارة إلى اهم الملامح التي تميز بها من وحي القرآن في سلم الموسوعات القرآنية الكبيرة.

ا- ان عقلانية التفسير عند سماحته تختلف عن عقلانية المعتزلة فالسيد يواكب حكم الشرع ولا يلجا إلى الادلة العقلية الا بعد انسداد العلم بالحكم الشرعي وذلك على منهج فقهاء الامامية في الفقه والتفسير.

ب- لم يعتمد السيد على المأثور الا وفق شروط صارمة تتفحص الرواية من خلال مضمونها قبل دراسة سندها لان صحة السند مع فساد المضمون لا يضفي على الرواية الشرعية ولذلك نجده قد اسقط من تفسيره الكثير من الروايات الشائعة والمشهورة لا سيما فيما يتصل منها بقصص الانبياء وقصص الخلاف.

ج- يعتمد السيد في اطار تفسير القرآن على حجية الظهور فيتجنب تاويل الايات الا في حدود استثنائية لا مناص فيها عن التاويل وبذلك يختلف منهجه في هذا المجال عن منهج العلامة الطباطبائي صاحب الميزان.

د- بالرغم من ان تفسير السيد هو ثمرة من ثمرات القراءة النقدية الواعية لمجهودات من سبقه من المفسرين الا ان خصوصيته التي انفرد بها عن سواه من

المفسرين القدامى والمعاصرين هي في قدرته على ربط القرآن الكريم بقضايا الإنسان والحياة وبذلك يأتي تفسيره اليوم ترجمة واقعية لامنية طالما خامرت رواد الصحوة الإسلامية امثال الشهيد الصدر ومالك بن نبي وجمال الدين الافغاني من حيث تم للسيد دام ظله ان يفتح المدرسة القرآنية التي كانت في وجدان قادة الإسلام مجرد حلم ولعلي أوفق لمتابعة هذه المقاربة الأولية لمنهج سماحة الامام فضل الله في التفسير في دراسة أوسع واشمل.